أبو حنيفـــة
ولـكن بغير فقه

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قد انتهينا فى الأدب الى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا ، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول فى مذهبه ويرد على مذهب غيره

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور فى الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة ، منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والجمود والتحول ، والقديم والجديد . ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعى ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث . أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدباً الا اذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابغ من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ، إذ لا يجرى الأمر فيما علا وتوسط ونزل الا على إبداع غيرَ تقليد ، وتقليد غيرَ اتباع ، واتباع غيرَ تسليم ؛ فلا بد من الرأى ونبوغ الرأى واستقلال الرأى حتى يكون فى الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحيَّ الجالس فى كل حي هو مجموعه العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول فى الوجود الانسانى يرجع بالحياة الى ذرات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى مثل ما أبدعت ذرّاتُ الخليقة فى تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف الا أنه المقلد الالهى . (١)

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربى فى عصرنا أو ينتهى ؛ وهل تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينفض ، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بَعيد أو قريب من قريب أو هو فى مكان بينهما ؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلا أمرُّ فيه بعظام مبعثرة فى ثيابها لا فى قبورها . . . ولكنى موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادى بين الأذواق والإسفاف بمنازع الرأى والخلط والاضطراب فى كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه ، وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل فى الأسلوب أسلوب تلغرافى ، وفى الفصاحة فصاحة عامية ، وفى اللغة لغة الجرائد ، وفى الشعر شعر المقالة ، ونجمت الناجمة من كل علة ، ويُزيَّن لهم أنها القوة قد استحصفت واشتدت ، ونازع الأدب العربى إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دَعِيًّا فى آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوء النظر له على حين يؤتَى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسن الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه

أين تصيب العلة إذا التمستها ؟ أفى الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم فى القائمين عليه فى مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم ؟

إن تقل إنها فى اللغة والأساليب والمعانى والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البليّةَ من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبت واتسعت ومادّت العصورَ الكثيرة إلى عهدنا فلم تؤتَ من ضيق ولا جمود ولا ضعف . ثم هى مادة ولا عليها ممن لا يحسن أن يضعَ يدَه منها حيث يملأ كفَّه أو حيث تقع يدُه على حاجته

وإن قلت إن العلة فى الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألناك : ولمَ قصّروا عن الغاية ، ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح فى نسبه مقامَ أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتّاباً وشعراء ؛ ومع انفساح الأفق العقلى فى هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء ؛ حتى لتجد عقول

(١) استوفينا هذه المعانى فى مقالة « الأدب والأديب » من مقالاتنا فى الرسالة

نوابغ القارّات الخمس تحتقب فى حقيبة من الكتب ، أو تُصَندَقُ (١) فى صندوق من الأسفار

كيف ذهب الأدباء فى هذه العربية نشراً متبدّدين تعلو بهم الدائرة وتهبط ، فكلٌّ أعلى وكل أسفل . هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيه وغربيه وهو ينظمه ويفتنُّ فى أغراضه ويولد ويسرق وينسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذى فقدته كل أمة من تاريخها ، ووقع فى تاريخ العربية وحدها ابتلاء ومحنة ؛ وهو ككل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا فى لغات غير العربية لظهروا نجوما ، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين الحصى . وتقرأ شعره فاذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً .

وهذا فلان الكاتب الذى والذى . . . والذى يرتفع إلى أقصى السموات على جناحى ذبابة .

وهذا فرعون الأدب الذى يقول : أنا ربكم الأعلى . وهذا فلان وهذا فلان .

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم ، فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهمها بعضهم ألفاً أو ألفين . ومتى قال الناس : غلطوا فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخفاء فهم سخفاء .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها . نافرة لا مساغ إليها ، متهمة لائقة بها ، طبيعة يتحول كل شىء فيها إلى أثر منها كما يتحول ماء الشجر فى العود الرطب المشتعل إلى دخان اسود .

* * *

يرجع هذا الخلط فى رأيى إلى سبب واحد : هو خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيقى يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر فى حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ، فان مثل هذا الإمام يُخَصُّ دائما بالإرادة التى ليس لها إلا النصر والغلبة ، والتى تعطى القوة على قتل الصغائر والسفاسف ؛ وهو إذا ألقى فى الميزان عند اختلاف الرأى ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثَمَّ تتهيأ قوة الترجيح ويتعيّن اليقين والشكر . والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجّح ولا يعيّن

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو المنطق الإنسانى فى أكثر الخلاف الإنسانى : تقوم به الحجة فتلزم وإن أنكرها المنكِر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المصِرُّ على غيرها . لأن بالإجماع على القياس يَبين التطرفُ فى الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضَرَب ضرب المعصيةَ بالطاعة ، والزيغَ بالاستقامة ، والعنادَ بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وَسْمُه ، ويزيغ من يزيغ وفيه صفتُه ، ويصيرُ المكابر واسمُه المكابر ليس غير وإن هو تكذّب وتأوّل ، وإن زعم ما هو زاعم

ولكل القواعد شواذّ ولكن القاعدة هى إمام بابها ؛ فما من شاذّ يحسب نفسه منطلقاً مخلّى ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذّ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ؛ فيكون شأنه فى نفسه بما تعيّن هى له على مَكْرَهته ومحبته

والإمام ينبث فى آداب عصره فكراً ورأياً ، ويزيد فيها قوة وإبداعاً ، ويزين ماضيها بأنه فى نهايته ، ومستقبلها بأنه فى بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى ؛ لأن هذا الإمام إنما يختار لإظهار قوة الوجود الانسانى من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنَسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ، ويجد فيه قومه كما يجدون فى الحقيقة التى لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفى القوة التى لا يخالف عندها مبطل بعناد ، وفى الشريعة التى لا يروغ منها متعسف بحيلة . ولن يضل الناس فى حق عرفوا حده ، فان ماوراء الحد هو التعدى ؛ ولن يخطئوا فى حكم أصابوا وجهه ، فان ماعدا الوجه هو الخلاف والمراء .

وقد طبع الناس فى باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرد بالكمال كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السمت ، ولابد

(١) كلمة وضعناها على قياس تحقيب

لهم ممن يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مراشدهم ومصالحهم ، فالامام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتسلط فى الحكم على الناقص والوافى من كل ما هو بسبيله ، ثم لا خلاف عليه إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة .

هو إنسان تتخير بعض المعانى السامية لتظهر فيه بأسلوب عملى ، فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه ، فإليه يرد الأمور فى ذلك وبتلوه يتلى وعلى سبيله ينهج ، فما من شىء يتصل بالفن الذى هو إمام فيه ، إلا كان فيه شىء منه ؛ وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها لأنه بفنه حكم عليها ، فيكون قوة وتنبيهاً وتسهيلا وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ، ويكون رجلا وإنه لمعان كثيرة ، ويكون فى نفسه وإنه لفى الأنفس كلها . ويعطى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه خلق من الحب طريقُه على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة فى الاسلام ووجوب ذلك على المسلمين ، فلابد على هذه الأرض من ضوء فى لحم ودم ، وبعض معانى الخليفة فى تنصيبه كبعض معانى « الشهيد المجهول » فى الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة وصمت يتكلم ، ومكان يوحى ، وقوة تُستمد ، وانفراد يجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة فى شرف الحياة والموت بل الحرب مخبوءة فى حفرة ، والنصر مغطى بقبر ، بل المجهول الذى فيه كل ما ينبغى أن يعلم .

***

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ كل من يزعم نفسه إماما هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه .

ولعمرى ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن هنا موضعا خاليا يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تنحاز من جهة ، فمنذ مات الامام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، وتأت رءوس ، وزاغت طبائع . وكأنه لم يمت رجل بل رفع قرآن .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

جيلان

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« ألا تعرفنى ما هذا الجديد ؟ »

ولم يكن كلامنا فى الأدب أو الفنون وإنما كانت المساكن والأحياء هى مدار الحديث . وكان الرجل يناهز الستين ولكنه فى نشاط ابن العشرين ، وأنا آنس به وأسكن إليه ، ويسرنى أن أجلس بين يديه وأصغى — أو لعل الأصح أن أقول أنظر — إلى عباب حديثه المتحدر فقد كان يذكرنى بالبحر ويروعنى مثله بمثل فيضه الزاخر

فقلت له « ياسيدى ، العارف لايعرف . . ولكنى أستأذنك فى أن أقول لك إنكما جيلان — أنت وبنوك — ومن حقك أن تتبرم بهم وتسخط على نزعتهم فى الحياة وتستسخف مطالبهم فيها وغاياتهم منها . . أنت حر فى ذلك ولكن من حقهم أيضاً أن يضجروا منك لأنهم ينزعون غير نزعتك وأن يطلبوا من الحياة غير ما تطلب ، لأن وجوهها اختلفت . وأظن أن هذا عدل »

فصاح بى : « عدل ؟ . كيف تقول ؟ . عدل أن يخرجونى من بيتى ويحملونى إلى حى أنا فيه غريب لا أشعر إلا بالوحشة ؟ . ويقصونى عن أحبابى وأصحابى وعشراء الصبى وأخدان العمر كله ؟ . ما عيب بيتنا بالله ؟ . إنى لست متعنتا . . أنت تعرف بيتنا فهل تعرف فيه عيباً ؟ »

قلت « كلا . . وأشهد أن لاعيب فيه . . واسع وصحى وأسباب الراحة فيه موفورة . . نعم لاعيب فيه ولكنى أعترف بأنى لو كنت ابنك لما فعلت إلا ما فعل بنوك . . أى لخرجت منه »

فقال « أنت كنت تفعل ذلك ؟ . حاشا لله . . إنك عاقل . »

قلت : « المسألة ليست مسألة عقل . . وإنما هى مسألة حياة تغيرت وجوهها وزمن اختلفت المطالب فيه »

قال : « إنى أجادلهم كل يوم . . الكلام فى هذا لا ينتهى بيننا »

قلت « وهذا حسن . . وجدتم على الأقل موضوعاً للكلام لاتخشون أن ينضب معينه »